الرقابة وتوابعها في البحث العلمي

نصر حامد أبو زيد

كان أحد بواعث السعي إلى تأسيس الجامعة، كمؤسسة مستقلة للفكر والثقافة العصريين، هو حالة الفشل الذريع الذي منيت بها كل محاولات تحديث المؤسسات التقليدية، وعلى رأسها مؤسسة (الأزهر). هذا برغم محاولات (التوفيق) بإنشاء مؤسسات تعليمية تجمع بين (الأصالة) و (المعاصرة)، مثل مدرسة دار العلوم التي أسسها (علي باشا مبارك) (١٨٢٣ - ١٨٩٣). وكما تم إنشاء مدرسة (دار العلوم) سنة ١٨٧٢ لتلافي ما امتنع شيوخ الأزهر عن قبوله من إدخال بعض العلوم الحديثة ضمن البرنامج الدراسي إلى جانب العلوم الدينية التقليدية، تم أيضاً سنة ١٩٠٧ - بعد عامين من رحيل الإمام محمد عبده - إنشاء مدرسة (القضاء الشرعي)، التي كان الإمام قد وضع مشروعها قبل وفاته، (للاستغناء بها عن الأزهر) - حسب عبارة (رشيد رضا) (المنار، مجلد ٢٣، ص٥٤٢) - من أجل تخريج قضاة مدربين وفقاً للأساليب الحديثة. كان برنامج المدرسة الجديدة يجمع بين دراسة (الفقه) وبين دراسة النظم القضائية الحديثة من منظور مقارن.

برغم تلك المحاولات كان احتياج المجتمع الجديد، حديث الولادة، لمؤسسة تعليمية عصرية أمراً ملحاً، وهكذا تم إنشاء (الجامعة الأهلية) عام ١٩٠٨، التي ظلت مستقلة مالياً حتى الأزمة المالية التي سببتها الحرب العالمية الأولى فامتدت يد الحكومة لتنقذ الجامعة من الإفلاس. ولكن الإنقاذ كان مشمولاً كالعادة بالاستيعاب أولاً، ثم السيطرة وإحكام القبضة فيما بعد. في عام ١٩٢٥ تم تحويل الجامعة إلى جامعة حكومية، وتم تغيير اسمها إلى (جامعة فؤاد الأول). لم يكن التغيير مجرد تغيير شكلي، فالجامعة الوليدة لم تكن منذ بدايتها قادرة على الصمود ضد محاولات المؤسسة التقليدية، وتوابعها، للتحجيم من حركتها. في دراسته الهامة (جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة) (Cairo University and the Making of Modern Egypt)مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٩٠) يورد (دونالد مالكوم ريد) Donald Mal colm Reidالوقائع التالية ذات الدلالة على مدى قوة المؤسسة الجديدة، وقدرتها على التصدي للتحديات التي فرضتها المؤسسات التقليدية.

١-الواقعة الأولى هي واقعة اختيار الجامعة للكاتب والصحفي المؤرخ (جرجي زيدان) لتدريس التاريخ الإسلامي، وهو اختيار أثار اعتراضات في شكل مقالات في الصحف، خاصة في صحيفة (المؤيد) لصاحبها الشيخ (علي يوسف)، تعترض على اختيار (مسيحي) لتدريس التاريخ الإسلامي. وكان رد فعل الجامعة، التي كانت تستأجر أساتذة أجانب من أوروبا لتدريس (الأدب العربي) و (الفلسفة الإسلامية) فيها، إن استسلمت للابتزاز الرخيص، فأرسلت خطاب اعتذار للأستاذ (جرجي زيدان) مصحوباً بشيك قدره مائة جنيه مصري تعويضاً عن فسخ العقد الذي كان قد وقع بينه وبين الجامعة.

٢-الواقعة الثانية تتصل بحالة (منصور فهمي) الذي حاز درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة (السوربون) عام ١٩١٣ على أطروحته (أحوال المرأة في الإسلام).

tion de la Femme dans la Tradition de L'Islam.

كان (منصور فهمي) قد سافر إلى فرنسا مبعوثاً من قبل الجامعة الوليدة (الجامعة المصرية)، ولكن بعض التقارير السرية وردت إلى الجامعة تتهم (منصور فهمي) بأنه يكتب رسالة مضادة للإسلام ونبيه، وذلك تحت إشراف (أستاذ يهودي)، وبناء على هذه التقارير حاولت الجامعة أن تقنع المسؤولين في جامعة السوربون بإرسال الرسالة للجامعة المصرية قبل إقرارها لترى فيها رأيها، وتقرر صلاحيتها أو عدم صلاحيتها. وبالطبع لم تلق (السوربون) أدنى التفات لهذا الطلب الغريب والشاذ، وحصل الشاب (منصور فهمي) على درجة الدكتوراه. وكان القرار هو عدم توظيفه في أية وظيفة رسمية بالجامعة أو بغير الجامعة. وظل الدكتور خريج السوربون عاطلاً حتى وضعت الحرب أوزارها وهدأت الضجة، فتم تعيينه بالجامعة. وجدير بالذكر أن الرسالة التي طبعت مرتين باللغة الفرنسية، ثانيتهما عام ١٩٩٠، لم تترجم إلا عام ١٩٩٧، ونشرتها (منشورات دار الجمل)، وهي مؤسسة نشر عربية موطنها مدينة (كولون) بألمانيا.

لن نتعرض لقضية (طه حسين) والفضيحة التي أثارها كتابه (الشعر الجاهلي)، فالقضية أشهر من تكرار الحديث عنها، هذا إضافة أن الجامعة ممثلة في شخص مديرها آنذاك (أحمد لطفي السيد باشا) وقفت مدافعة عن ابنها وعن استقلالها.

٣-الواقعة الثالثة هي فضيحة رسالة الدكتوراه التي قدمها المعيد (محمد أحمد خلف الله) سنة ١٩٤٧ تحت إشراف الشيخ (أمين الخولي) بعنوان (الفن القصصي في القرآن)، وهي فضيحة شملت كل أركان المجتمع ومؤسساته، من الأزهر إلى (البرلمان) إلى مجلس الوزراء إضافة إلى (كلية دار العلوم) التي كانت قد أصبحت جزءاً من جامعة القاهرة. كان موقف رجال أمثال (أحمد أمين) و(عبد الوهاب عزام) و(أحمد الشايب) موقفاً أقل ما يقال عنه إنه متخاذل. وحده وقف (الخولي) يدافع عن الرسالة وعن صاحبها، حتى وفاته عام ١٩٦٦، انتهت الفضيحة برفض الجامعة للرسالة، وبفصل صاحبها من العمل التعليمي. أما عقاب المشرف (الشيخ الخولي) فقد كان حصره في مجال اسم الكرسي الذي عين عليه (الأدب المصري) وعدم السماح له بتدريس (علوم القرآن) أو الإشراف على رسائل تتصل بها. هذا القرار فرض على المعيد (محمد شكري عياد) آنذاك أن يختار بين الاستمرار في (الدراسات الإسلامية) متابعاً ما أنجزه في رسالة الماجستير بإشراف (الخولي) عن (يوم الحساب في القرآن)، ولكن تحت إشراف أستاذ آخر، أو التمسك بالأستاذ وتغيير التخصص. وكان اختيار (عياد) التمسك بالأستاذ واختيار (علوم النقد والبلاغة) تخصصاً.

٤-سرعان ما قامت الثورة المباركة عام ١٩٥٢، وسرعان ما اصطدمت بدعاة الديمقراطية والمدافعين عن الحكم المدني، فقامت بالتخلص من العناصر المقلقة باسم (تطهير الجامعة من الفساد) ففصلت عدداً من الأساتذة والمعيدين، يجمعهم الموقف الوطني دفاعاً عن عدم عسكرة المجتمع. كان من بين المستبعدين الشيخ (أمين الخولي)، إلى جانب أسماء كثيرة أخرى، يكفي أن نذكر منها (لويس عوض) ومحمود (أمين العالم). لم تسلم الجامعة بعد ذلك من التدخلات السياسية في شؤونها، الأمر الذي كتب فيه الكثيرون ومنهم كتاب الصديق (محمد أبو الغار) الذي صدر منذ عامين.

٥-اشتدت الوطأة على الجامعة في السبعينيات وما تلاها بسبب حالة القلق التي كانت، ولا تزال تسيطر على الشباب المشغول بقضايا المستقبل. لكن الإجراءات القمعية المتتالية أفرغت الجامعة من قوتها الخلاقة المبدعة، حين تم تحريم العمل السياسي داخل الجامعة، وحين تم حصار المجتمع كله بالمشكلات الاقتصادية والإجراءات الأمنية. بدأ الفساد في المجتمع مع عصر الانفتاح (السداح مداح)، وما زال مسلسل الفساد مستمراً في تزايد حتى الآن. لم يكن للجامعة أن تنجو من وحش الفساد الذي أصبح يسد الآفاق.

٦-ثم كانت فضيحة ١٩٩٣، المعروفة بقضية (أبو زيد)، وما تلاها من وقائع معروفة ومتداولة. بدأت الفضيحة (أكاديمية)، لكن الفساد الذي أخرس الألسنة في إدارة الجامعة إزاء أستاذ واحد، رائحة فسادة تزكم الأنوف، حولها إلى فضائح سياسية وقانونية. لم يجرؤ الفساد الأكبر على مناطحة الفساد الأقل شأناً، لا الأقل حجماً، وكيف يكون ذلك الفساد يسند بعضه بعضاً! صدر حكم قانوني جائر ضد (أبو زيد) وتظاهرت الجامعة بأنها تقف مع ابنها فلم تفصله، بل سهلت له إجراءات السفر معارا إلى إحدى جامعات أوروبا.

لكن قراراً اتخذ بليل، قراراً ينكر الجميع من رئيس الجامعة إلى عميد الكلية أنهم أصدروه، يحذف كتب (أبو زيد) من على أرفف مكتبة الجامعة لا أحد يدري حتى الآن إلى أين؟ بالمناسبة ليس هناك أي قرار قضائي أو نيابي أو أمني أو فتوى من الأزهر بمصادرة كتب (أبو زيد)، أليس هذا دليلاً على الحرية والانفتاح؟ طبعاً هناك بعض المضايقات حين تعرض الكتب على الأرفف في معرض الكتاب بالقاهرة، إذ عادة ما يقترب بعضهم وينصح الموزع بإخفاء الكتب عن عيون الناظرين، لأسباب أمنية، مؤكداً له أن قراء (أبو زيد) سيسألون عن كتبه. (مدبولي) أيضاً لا يعرض كتب (أبو زيد) أمام المكتبة أو على الأرفف، وإن كان قد نشر بعضها ويحرص على توزيع ما نشر منها في بيروت.

لماذا (صادرت) جامعة القاهرة كتب (نصر أبو زيد) بلا قرار، وهي الجامعة التي استمر (أبو زيد) أستاذاً بها، تجدد له الإعارة سنوياً، وتحصل منه حصته في المعاش والتأمين والإدخار بالعملة الصعبة؟ وأخيراً وصل (أبو زيد) إلى سن المعاش القانوني، وتم تعيينه أستاذاً متفرغاً - أو غير متفرغ، لا أدري - حتى يبلغ سن السبعين، نعم صدق المتنبي.

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

٧-لكن لا سر في الأمر؛ فالذين تابعوا موقف الجامعة ووزير التعليم العالي من الكتب بعد ذلك يدركون لا شك أن (الرقابة) بالمعنى البوليسي أو الأخلاقي أو الديني، أو القانوني، لم تعد كافية لحماية الشباب من الأفكار الهدامة. انضم إلى كل أنواع الرقابة المذكورة نوع جديد اسمه (الرقابة الأكاديمية). حيث كتب (صلاح منتصر) في عموده اليومي بالأهرام يوم ١٣ آيار ١٩٩٨ عن كتاب (مكسيم رودنسون) محمد، الذي كان أحد مراجع مقرر دراسي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، سارع السيد الأستاذ الدكتور وزير التعليم العالي بإصدار قرار بسحب الكتاب من مكتبة الجامعة، ووقف الأستاذ الذي كان يدرس المقرر مستخدماً الكتاب. كانت فضيحة، لكنها لم تثر المجتمع ولم تحرك قوى الدفاع عن الحريات باستثناء كتابات متناثرة هنا وهناك. من يومها أصبح المجتمع في حكم المقرر قانوناً جواز الرقابة والمصادرة. في رده على من أثار قضية مصادرة الكتاب - وكانت المناسبة الاحتفال بالدكتور (أحمد زويل) الحاصل على (نوبل) - قال الأستاذ الدكتور وزير التعليم العالي:

أنا أتحدث كأستاذ قانون فإن هناك مجموعة آداب وقيم في كل مجتمع تشكل النظام العام الخاص به، وما قد يكون عيباً في مجتمع لا يكون كذلك في مجتمع آخر، وعندنا في مصر لا يسمح النظام العام بأن تكون المعتقدات الدينية الراسخة محل استهزاء ونقد وتجريح. نعم أنا مع حرية البحث العلمي وأول من يؤيده في العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية، ولكن من دون أن تصل إلى الإخلال بالنظام العام والآداب الخاصة بكل مجتمع وبمعتقداته، وهذه قاعدة في القانون. ولهذا أوقفنا تدريس كتاب (محمد) تأليف مكسيم رودنسون في الجامعة الأمريكية، فالكتاب يقول إن القرآن الكريم ليس من وحي الله سبحانه، أنا أسفت للمؤلف فإنني كنت في بارس واستمعت إليه، وكان وقتها يساند القضية الفلسطينية وانه ماركسياً، ولكن كونه يدافع عن القضية الفلسطينية ليس معناه إن كل ما يكتبه أقبله، وإنما لا بد أن أرى مضمونه. وعندما تحققت من أن ما ذكره الأستاذ صلاح منتصر - الذي أثار هذا في عموده - صحيح مائة في المائة أصدرت قراري بوقف تدريس الكتاب في الجامعة.

إنه في باريس التي هي أكثر منا حرية قدموا جارودي للمحاكمة وأدين، لماذا؟ لأنه انتقد بعض ما قيل من أفكار عن النازية وإنهم بالغوا في الأرقام وإن هذا العدد غير صحيح. مجرد إن كتب جارودي الذي يقول إن هذه مسلمات لا يمكن الطعن فيها، ومنها أن تقول إن اليهود لم يعذبوا، أي إنه بمجرد أن تنتقد وتقول إن اليهود لم يعذبوا وتكتب ضد هذا تحاكم وتدان.

إن هذا الكتاب يتعارض مع حرية البحث العلمي. وإذا جاء أي كتاب بما يخالف رواسخ المعتقدات الدينية فسوف أوقفه، فالرقابة في الجامعة لاحقة علي ما هو مخالف لمعتقدات المجتمع، ولكن لا يمكن في البداية أن أقول لكل أستاذ هات كتبك لكي أراجعها، لأن هذا ضد حرية البحث العلمي. إنما وبعد صدور الكتاب نقرؤه ونفحصه وهل هو مناسب للتدريس أم لا؟ فإذا كنت تريد أن تكتب فأهلاً وسهلاً ولكن لا تخل بقيم المجتمع. (التأكيد لنا).

لا تعليق لنا على هذا الكلام؛ لأنه لا يحتاج لتعليق؛ فهو مفصح بما فيه الكفاية. هل نتساءل عن (الرقابة). تلك هي، من خلال خبرتي الشخصية، أشد أنواع الرقابة وحشية؛ لأنها لا تحمي المجتمع بل تسد عن الضوء والشمس عن مستقبلنا، عن الشباب في الجامعة. لهذا لا عجب أن تفشل كل محاولاتي ومحاولات الزملاء لدعوتي عضواً لمناقشة رسالة ماجستير أو دكتوراه في القسم الذي أنا - رسمياً - عضو في هيئة التدريس به. لقد صودرت كتبي من مكتبة الجامعة، وحين حرم طلابها من أفكاري بعد أن حرموا من حضوري الشخصي. كانت هذه المصادرة، ولا تزال، أقسى من الحكم القضائي، وأقسى من أية غربة.

ولأن هذه الشهادة ستتلى في سياق ندوة يعقدها (منتدى الإصلاح العربي)، الذي تم تكوينه لمتابعة قرارات المؤتمر الكبير الذي عقد في هذه المؤسسة، فاسمحوا لي أن أذكركم بقرار وزير العدل بمنح حق (الضبط القضائي) لبعض أعضاء مجمع البحوث الإسلامية، الذي صدر عقب المؤتمر. ما معنى هذا؟ هل هو العزل في موطن الجد؟ أم أن الدولة دولتان، واحدة مع الإصلاح والأخرى ضد الإصلاح؟ أم إن الإصلاح مجرد لافتة ترفع لمواجهة الضغوط الخارجية برغم كل الدعاوى أن الإصلاح يجب أن ينبع من الداخل؟ لكن المفرقة - المضحكة أو المبكية لا فرق - إن (الإصلاح) صار فجأة شعار الجميع بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، وليس قبل ذلك.

أرجو ألا يعتبر أحد كلامي تشكيكاً في النيات الحسنة، فإن ما أسعى إليه ليس إلا قدراً معقولاً من القدرة على نقد الذات، وبدون هذه القدرة على النقد الذاتي لا يمكن تحقق إصلاح حقيقي. ولنذكر جميعاً، من دون إحساس بالدونية، أن مشروع النهضة والإصلاح الذي بدأت ملامحه تتبلور منذ بداية القرن التاسع عشر في العالم العربي كان ثمرة الالتقاء بالآخر؛ فالذات في النهاية لا تدرك عجزها وتخلفها إلا في مرآة الآخر. لكن مشكلة هذا المشروع أنه لم يستوعب أسباب التخلف بقدر ما انبنى على موقف سجالي مع الآخر، انتهى به أحياناً إما إلى تبرير العجز، وإما إلى الركون إلى تراث تمت أدلجته، وإلى تاريخ تم حصره في دائرة الكمال، العصر الذهبي. لا نريد أن نكرر الخطأ، بقدر ما نريد التحرر من ضغط الآخر ومن ضغط الماضي معاً. التحرر من الضغط لا يتم بالتجاهل بقدر ما يتم بالدرس النقدي، وهو أمر يحتاج إلى مناخ تعليمي وأكاديمي يؤمن بالحرية قيمة مطلقة، ومناخ قانوني ودستوري يحمي هذه الحرية. لكنا نعلم جميعاً أن كل الحريات المتاحة في العالم العربي لا تكفي كاتباً واحداً مستقلاً. تلك هي القضية.

> أفضل الحديث عن الرقابة من خلال تجربتي الشخصية، وأقصد بها الرقابة الأكاديمية على وجه التحديد. هذا في تقديري أهم من الحديث عن تفاصيل محنتي الشخصية المعروفة تفاصيلها. يستدعي هذا الحديث بالضرورة الحديث عن (الجامعة المصرية)، تلك المؤسسة التي سعى إلى إنشائها في أوائل القرن العشرين جيل الرعيل الأول من قادة الفكر والمجتمع والسياسة، والتي اعتمدت مالياً على مساهمات وتبرعات المواطنين في المحل الأول، حتى سميت بحق (الجامعة الأهلية).

حياة مؤجلة

طالب عبد العزيز

لم تترك متوالية الحروب والفجائع والآلام حياة للعراقيين، وبذلك استطاعت قوى الظلام والشر أن تتمكن من نفوسهم، وتخترق أرواحهم، فصاروا مرعوبين من الداخل، خائفين من كل صوت، من كل سيارة تمر، من كل كيس في قمامة، من كل بندقية صدئة ملقاة.

وهكذا ترى الناس تسرع في قضاء حاجاتها من السوق، من الدائرة، من المدرسة، لتدخل بيوتها لشعورها المستمر بعدم الأمان. وبذلك تركت المجال واسعاً لسعاه الموت، وتخلت أمامهم عن لحظات الحياة واحدة تلو الأخرى، ليصنعوا بذلك مستعمرتهم المسورة بالقتل والخوف والرعب وبكل ما هو غير إنساني وكافر، مثلما صنع النظام السابق مستعمرته التي ابتدأها بالزج بهم في الحروب وأخذهم إلى الجبهات أو إجبارهم على الانخراط في حزبه ومنظماته السرية أو حشرهم في القاعات ليصفقوا لاسمه البغيض.

ولم تكن حياة العراقيين هكذا حتى مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، ومن استطاع أن يحيا تلكم الأيام لاحظ حياة لا يجد الآن واحدة من معانيها، فقد كانوا أشد الناس حباً لها وأكثرهم عناية، فمواسم أفراحهم لا تعد، فقد أنعم الله عليهم ببلد غني وطبيعة ساحرة ووهبهم سريرة نفوس نقية فكهة. حتى صارت مدن مثل بغداد والبصرة والموصل أمثلة للسفر والراحة والاستجمام. ولعل دور المرأة الفاعل كان من القوة والأهمية بحيث أضفى على تلك المرحلة الانسجام والتوازن في جميع مراحل الحياة، فهي مشتركة قوية مع الرجل في صنع الإرادة التي أرادها الله للإنسان بعيداً عن الإقصاء والنفي.

والمرأة العراقية التي عانت ما عانت من تعسف وبطش النظام السابق الذي قتل ونفى وشرد وسجن زوجها وشقيقها وابنها وحبيبها، فمن لم تندب ابنها ندبت زوجها، ومن لم تفقد شقيقها فقدت حبيبها، وهكذا جعل منها مأتماً دائماً وأنموذجاً منكسراً، لا يطرق الفرح بابها، ولا يقف على شباكها عندليب الأيام الأخضر، فقد سحقتها متوالية السنون حروباً وفقراً وحزناً. ولما سقط النظام وتكشفت مقابر أبنائها وأشقائها وجيرانها خرجت مذعورة تلم عظامهم وتواري ثراهم متوهمة أن المشهد هذا هو الأخير في سلسلة مأساتها التي ظلت تلاحقها كلما انفتحت كوة للأمل أمامها.

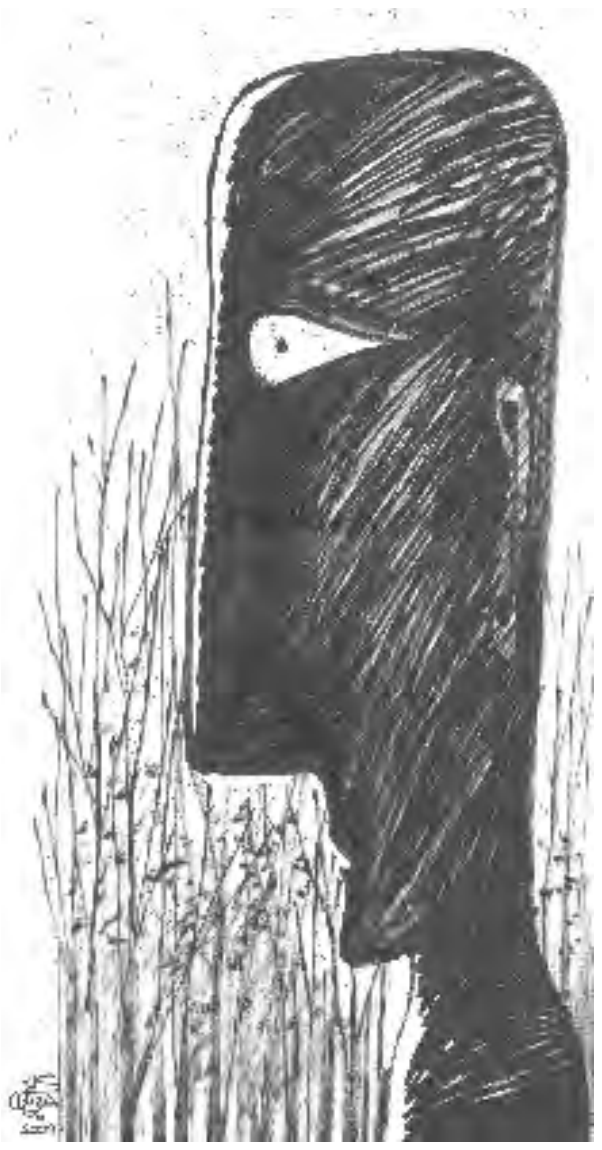

الآن، ونحن نعمل لاستعادة الحياة، ونريد أن نفكر بابتداع طرق جديدة لاستعادتها من فم الزمن الموحش، ندعو المعنيين بأمرها، أن يتركوها لحظة، فقد استباحوا لحظاتها بما يكفي، وجعلوها مقبرة دائمة يسكنها الدفانون والملقنون والأشباح. أما الناس الحقيقيون المعنيون بأمرها فقد طردوا خارجها، بعيداً هناك حيث لا أمل بالعودة ثانية، واقفين خائفين مأزومين، والعالم من حولهم يسعى ويكبر ويبتهج.

لم نر جماعة، حزباً، منظمة، أفراداً، سلطة فكرت بمسؤولية حقيقية بالمرأة العراقية مثلما أرادها الله حرة كريمة، البعض لا يريد أن يخرجها من دائرة الأحزان التي وضعها بها النظام السابق، والبعض الآخر يريد أن يجندها في قائمة حزبه طمعاً بصوتها والآخر يريد أن يتركها تصنع مصيرها بنفسها وهي لم تر من الحياة غير باب بيت الجيران وهكذا، ظل الرجل يفكر عنها، ويقترح حياتها وطولها وقوتها ثم يختار الجنة أو النار لها أو يختار القبر المناسب الذي سيقبرها فيه إلى الأبد. أما هي فلا تمتلك من نفسها إلا الصمت والتفرج على ما يدور حولها.

نحن هنا، قد لا نجد الطريقة المثالية لاستعادة حياتها، ولا نملك عصا سحرية لذلك، وأمر من هذا النوع يقع بالتأكيد خارج الإرادة الشخصية، لكننا نرى أن من يريد أن يفكر بانتشال المرأة العراقية من واقعها المؤلم عليه أن يدعو إلى يوم يتعطل فيه التفكير الذكوري مرة في السنة، في الشهر، أو في الأسبوع، ولندع لها حق التفكير بمصيرها، أو نأخذ بيدها بعيداً عن أنانية الذكورة التي جلبت المصائب لها وليخرج كل رجل مع عائلته (زوجته، أطفاله، أمه، أخته، حبيبته..) في تظاهرة سلمية لا ترفع فيها بندقية أو لافتة أو شعار ولا تنتمي لحزب أو جماعة أو فكرة، هكذا وليملأ الناس الشوارع، الأرصفة، الأزقة والمتنزهات (إن وجدت) ولنر حياتنا وقد تلونت بهن، أشرقت بطلعتهن، لنر بناتنا يقفزن أمامنا مثل عصافير طليقة، لنحتشد أمام الظلام والعنف والإرهاب، لنتبادل الهدايا والقبل والسلام والحب والأخوة والعطف والرضا والعفو والصفح واللين.

هي دعوة لمن يريد أن يوقف التصحر في النفوس، وإذا لم نبادر لمثل هذا اليوم سوف يأتي برغم أنوفنا بل سيكسر أنوفنا رغماً عنا. فمسيرة الحياة أكبر من أن يقف بوجهها أحد.

كتاب يتحدث عن صداقة وثيقة بين المهاتما غاندي وابنة ادميرال بريطاني

بقلم بالاش كومار

يتحدث كتاب صدر حديثا عن المهاتما غاندي الذي تصادف هذه الايام الذكرى الخامسة والثلاثين بعد المائة لميلاده، عن علاقة صداقة وثيقة سرية مع امرأة بريطانية كانت معجبة به، مثيرا بذلك جدلا بين المعجبين بالداعية الهندي الى اللاعنف.

ويتناول الكتاب الذي الفه المحلل النفسي سودهير كاكار وهو بعنوان "ميرا والمهاتما"، ما يبدو انه علاقة وثيقة ولكنها افلاطونية بين غاندي ومادلين سليت، وهي ابنة ادميرال بريطاني غادرت بريطانيا في ١٩٢٥ في الثالثة والثلاثين من عمرها وتوجهت إلى الهند لتكون بالقرب من غاندي الذي كان آنذاك في السادسة والخمسين.

ويصف الكتاب، الذي أثار عاصفة من الجدل بين المعجبين بغاندي، تلك العلاقة بانها "اضطراب عنيف وعاطفي" في حياة الرجل الذي كرس حياته لتخليص الهند من الاستعمار البريطاني.

ويصور الكتاب الصادر في الهند عن دار "بنغوين" تفاصيل العلاقة باسلوب روائي معتمدا كما يوضح كاكار بصورة كبيرة على ٣٥٠ رسالة بعث بها غاندي الى سليت خلال الفترتين بين ١٩٢٥ و١٩٣٠، وبين ١٩٤٠ و١٩٤٢، والمحفوظة في مكتبة متحف نهرو التذكاري في نيودلهي.

ويضيف كاكار ان رسائل سليت لغاندي فقدت حيث دأب الزعيم الهندي على اعادة استخدام كل قصاصات الورق لاعادة الكتابة عليها.

ويعرب كاكار عن اعتقاده بان سليت "احبت روح غاندي"، ويضيف في تصريحات لوكالة فرانس برس ان علاقة الحب هذه "لم تتوج جسديا بين الاثنين، حتى لم يكن هناك تبادل لعبارة "انا احبك".. غير ان الكتاب اثار غضب المعجبين بغاندي الذين قالوا إنه يشوه صورة العلاقة بين سليت وغاندي. .

وتقول نيرمالا ديشباندي (٧٥ عاما) التي تحظى بشعبية في الهند كونها تعنى بارث غاندي، ان تلك العلاقة كانت "روحية بالكامل، بين معلم وتلميذته والتي ليس بامكان الاخرين ان يفهموها. لم تكن على مستوى دنيوي"، مضيفة ان "الكتاب مبني على اساس غير حقيقي بالمرة".

وفي حين كان يجوب البلاد سعيا الى نيل الاستقلال، وهو ما تحقق اخيرا في ١٩٤٧، كتب غاندي رسائل وملاحظات لعدد كبير من الناس من بينهم سليت التي اختارت الاقامة في منطقة سكنه في سابارماتي في محافظة غوجارات غرب الهند.

واطلق غاندي على سليت اسم "ميرا"، راعية الاغنام ومحبوبة الاله "كريشنا" في الاساطير الهندوسية.

وكتب غاندي في احدى رسائله لسليت في احدى فترات انفصالهما "انت في العقل، انا ابحث عن نفسي وافتقدك. انا اشغل الشارخا (مغزل النسيج) وافتقدك".

وفي رسالة اخرى، قال انه يحب ترجمة التراتيل الهندية الى الانجليزية من اجلها، مضيفا "بترجمة هذه التراتيل لك، انا اعطي نفسي الكثير من المتعة" متسائلا "الم اعرب عن حبي غالبا بصورة عاصفة اكثر منه بدفقات حب رقيقة".

وفي احدى المرات، عندما كان غاندي على وشك البدء في صيام لمدة اسبوع، كتب الى "ميرا" ملاحظة جاء فيها "ميرا، لن أراك لمدة اسبوع. سأفتقد الامسيات التي نقضيها معها، لكنني يجب ان لا اكون متعلقا بها".

ويعرب كاكار عن اعتقاده بان غاندي لم يكن مرتاحا بسبب قوة مشاعره تجاه سليت.

ويقول "اعتقد انها عندما كانت قريبة جدا منه، كان يشعر بضغط. كان ينظر اليها على انها خطر. كان قريبا جدا جدا منها. كان يشتاق اليها عندما تكون بعيدة. لكن بقدر معرفتي، لم يكن هناك اي شيء جنسي".

تزوج غاندي وهو في الثالثة عشرة من عمره، لكنه اشتهر بالقرار الذي اتخذه عند بلوغه منتصف الثلاثينات من العمر وبعد ان انجب اربعة ابناء، ان الجنس هو اساس كل النزوات التي يجب التحكم بها للمضي قدما في حياة ورعة وتقية، واختار بعد ذلك الامتناع عن الجنس.

ويعد الكتاب الثاني الذي يصدر عن غاندي في الاونة الاخيرة.

والفت الكتاب الاخر بعنوان "سجين غاندي حياة ابن غاندي، مانيلال،" حفيدة ابنه غاندي اوما دوفيليا-ميسثري في جنوب افريقيا.

ويصور الكتاب المبشر باللاعنف على انه اب ذو قبضة حديدية بالنسبة لابنه.

وكانت سليت بعيدة عن منطقة سكن غاندي عندما قتل في ١٩٤٨ برصاص متطرف من الهندوس.

غادرت سليت الهند في ١٩٥٨ .. واستقرت في بلدة صغيرة بالقرب من فيينا ورفضت التحدث لاي شخص عن غاندي، معتقدة ان ارثه قد اصبح مهجورا.

ونذرت نفسها بدلا من ذلك لشغفها ببتوهوفن وتوفيت في ١٩٨٢ .

اكثر من مليون شخص شاركوا في (الليلة البيضاء) الثالثة في باريس

شارك اكثر من مليون شخص بحسب بلدية باريس في "الليلة البيضاء" الثالثة التي استمرت حتى الساعة الرابعة فجر اليوم الاحد (٢,٠٠ ت غ) دون ان يتخللها اي حادث التي كرسها رئيس البلدية برتران ديلانويه الى "سيدة احبت الليل" الروائية الفرنسية فرنسواز ساغان التي توفيت قبل اسبوع.

كذلك نظمت الليلة البيضاء هذه السنة تحت شعار التضامن مع الرهينتين الفرنسيين ومترجمهما السوري المحتجزين في العراق.

وقد شمل هذا المهرجان فعاليات كثيرة شارك فيها ثلاثمئة فنان من العالم اجمع في ١٢٥ مكانا في العاصمة الفرنسية. وشهدت بوت-شومون بشمال شرق باريس اكبر نسبة مشاركة مع حضور حوالى ٣٠ الف شخص بينما احصت البلدية ١٥ الف شخص في الهال.

واكد كريستوف جيرار مساعد رئيس بلدية باريس للشؤون الثقافية الذي يقف وراء هذا الحدث، خلال مؤتمر صحفي ان المشاركة كانت "اكبر بقليل" من المشاركة في العام ٢٠٠٣ التي قدرتها البلدية بحوالى المليون شخص. . وعند اعطائه اشارة الانطلاق لهذه التظاهرة السبت قبيل الساعة ٢٠,٠٠ عبر ديلانويه عن ارتياحه لان هذا الحدث المجاني "ترسخ كتظاهرة شعبية وفنية على مستوى عال جدا".. والى جانب الفعاليات العديدة اقامت منظمة "مراسلون بلا حدود" شاحنة امام مقر البلدية حيث كان المارة يقفون في صف طويل لتوقيع عريضة تضامن مع الصحفيين الفرنسيين كريستيان شينو وجورج مالبرونو المحتجزين مع مترجمهما السوري محمد الجندي رهائن في العراق.

وقد انطلقت هذه العملية خلال ٢٠٠٢ لتجعل من باريس مسرحا ثقافيا حتى ان عدة عواصم مثل روما وبروكسل ومونتريال حذت حذوها.